

سر قيادة العالم

للاستاذ أبي الحسن علي الحسنى الندوى
ترجمة

لقمان الأعظمى الندوى

عقدت جماعة الاصلاح والتبليغ حفلة سنوية في مدينة بهوپال و ذلك في اوائل شهر يناير عام ١٩٥٨ شهدها ألوف من المسلمين و حضرت فيها وفود المسلمين من مختلف الأقاليم و أنحاء الهند و بهذه المناسبة إنتهزت الكلية السيفية فرصة وجود الاستاذ الكبير الداعية الاسلامى الشيخ ابوالحسن علي الحسنى الندوى في المدينة ، فأقترحت عليه أن يلقي محاضرة امام طلاب الكلية و معلها ، فألقى الاستاذ خطبته القيمة و استمع إليها عدد عظيم من المسلمين و غيرهم .

واقترح الاستاذ خطبته بحكاية لطيفة ذات عبرة و عظة و هى أن جماعة من الطلاب كانت آتتزم على بحر راكين في سفينة و خاطب واحد منهم الملاح و قال : اظن انك درست العلوم الطبيعية من الكيمياء و الفيزياء فان هذه العلوم المدنية قد استولت على النفوس استيلاء و دخلت في الحياة دخولا فأصبحت شطراً لازماً منها فقال الملاح : هذا علم لا معرفة لى به و لم يسبق لى به عهد و تكلم الثانى و قال : لكنك درست العلوم الاجتماعية مثل الجغرافية و التاريخ فانها لازمة من لوازم الحياة في العصر الحاضر فرد الملاح قائلاً : انا بعيد عن هذا العلم و لا أدرى ما هو - ؟ و تكلم الثالث فقال : لكننى لا أشك

في انك قرأت بعض العلوم الرياضية مثل الحساب والجبر والهندسة فكثيراً ما يحتاج الانسان إلى هذه العلوم في حياته اليومية ولا يستهين بها فأنكر مثل إنكاره السابق فتأسفوا جداً و قالوا له لقد خسرت إذا و ضيعت شطراً من حياتك و سمع الملاح المسكين كل هذا بكل هدوء و تأن و مادام مشغولاً في عمله ، و ما لبثوا حتى عصفت بهم الرياح و اضطرب البحر و تلاطمت أمواجه و بدأت السفينة تظهر حيناً و تخفى أخرى فقال لهم الملاح قد اضطرب بنا البحر و كادت السفينة تفرق ، فهل تعلمت السباحة فأجابوا أننا لم نتعلمها قط و حينئذ تكلم الملاح و قال : إذا ضيعت شطراً واحداً من حياتي فانكم قد ضيعتم الحياة كلها ،

قال الاستاذ : نحن بصدد هذا الجزء من الحكاية فحسب ولو درستهم أيها الشباب تاريخ العالم و تأملتم في هذا العالم الراقى المتقدم لوجدتم أن قصته تشبه قصة الملاح و الطلاب كل الشبه و تنطبق على العصر الحاضر تمام الانطباق .

فلنفرض أن هذه الدنيا العريضة هي سفينة مشحونة بأنواع الركبان و المسافرين من الطلاب و المعلمين و الفلاسفة و الاطباء و الادباء و الفنانين و من المؤرخين و المهندسين و السياسيين و الرسامين و المصورين ولكن ليس فيهم من يحسن السباحة و يسوق السفينة و يجتاز البحر بأمان أما حكاية السفينة فكان أحد راكبيها يحسن السباحة غير ان السفينة التي نحن في صدرها الان ركبها عاجزون تمام العجز عن اجتياز النهر و السفينة تجرى في يم مائج و عباب زاخر و البحر متلاطم تلاطمها

مخيفاً غير مكترث بالفلاسفة والحكماء و غير عابئ برجال الأدب والشعر و إن هذا التيار الجارف والسيل المتدفق لا يمسكه إلا سيل مثله والتيار لا يمسكه إلا تيار مثله فلا بد من كهاج عنيف و صراع شديد و نور مبین يغير مجرى الزمن و يقرب تيار الحياة و من هنا يحتاج الانسان إلى علوم الانبياء و نورهم ،

و هذه هي الميزة الكبرى التي تمتاز بها دعوتهم فاذا تتبعنا سيرة الانبياء عليهم السلام في دعوتهم رأينا جوانب كثيرة تمتاز بها سيرتهم و تقوم بها دعوتهم فانهم لا يزعمون لأنفسهم النبوغ في العلوم والفنون و لا يمتازون عن الناس في الاكتشاف والاختراع و في العلوم المادية ، بالاختصاص منهم خاتم الانبياء والمرسلين محمد الرسول عليهم الصلاة والسلام كان أمياً لئلا يكون للناس على الله حجة و لكن الانبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا يعارضون العلوم والفنون بل كانوا يحبونها و يحرضون على تحصيلها جاهرين و معلنين بأن هذه العلوم والفنون لا تغنيهم كل الغناء و لا تنفعهم كل النفع و لا ترشد إلى غاية الحياة الصحيحة و إلى سبيل النجاة و إن علم النجاح والفلاح و علم الهداية والنجاة لا يمكن العثور عليه إلا بمن آذاهم الله قلوباً سليمة و علماً نافعاً ألا وهم الانبياء ،

و مضى الاستاذ يقول إن ما امتاز به الانبياء والمرسلون على الحكماء والمؤلفين والعلماء المحققين هو أنهم عنوا بعلوم الهداية و شغفوا بتربية النفوس و تخريج اولئك الافراد الذين يمكن لهم الاضطلاع باعباء الدعوة بعد الانبياء و ينفذون تعليمهم و رسالتهم في صورة

علمية و عملية جميعاً ،

و معلوم أن دعوتهم العظمى لا تقوم إلا على اكتاف المخاضين
الاقوياء والمنقطعين لها فمن هذه الناحية أصبحنا خلفاء الله في الارض
و وريثة الانبياء للجيل الجديد ومن هنا يفرض علينا أن نقوم و ننشر
دعوة الانبياء و ندعو الناس إلى سبيل السلام و نعلمهم التغلب على
الشهوات ،

لقد تقدم العالم اليوم في العلوم والفنون تقدماً مطرداً و قطع
أشواطاً بعيدة في الصناعة والاختراع و دُبل كل عقبه في هذا العالم
واخترق بذكائه كل حجاب و رفع الستار عن اسرار الكون و وضع
المقاييس لمعرفة ابعاد النجوم والكواكب و مسافات الاشعة والصوت
ولكنه مع الاسف لم يهتد إلى الطريق النجاة و سقط في اكتشافه
عاجزاً مقهوراً واستطرد الاستاذ قائلاً أنا لا اقلل قيمة هذه العلوم
ولا أنكر فضلها وأهميتها بل أنا أشد الناس تأييداً و أكثرهم تقديراً
لهذه العلوم و اقول : أنها قوة غريبة منحها الله للانسان غير اني
من الوجهة الاخرى لا استطيع ان انكر الحقائق الثابتة الواضحة التي
تدل على ان هذه العلوم لا تعلم الناس الانسانية ولا تعلمهم المروءة
والاخلاق والفضيلة ولا تمنحهم قوة التغلب على الشهوات حتى
اوربا اعترفت بنفسها ان الانسان و ان تقدم في العلوم المادية
و ان سخّر البرق والبخار و ان اصبح يطير في الهواء كالطير و
يسبح في البحار كالسمك لا يزال صفر اليد من ثروة الاخلاق و نعمة
الهدوء والاطمئنان و انه لا يزال طفلاً صغيراً في اخلاقه و شعوره

و اضاف الاستاذ قائلاً : إن العلوم والفنون لا تباع و لا تهدى و لا يستطيع احد أن يطوعها لنفسه و يتصرف فيها كيف يشاء بل إنها عمل و كفاح و جد و اجتهاد و من جد لها وجد ، و من الجدير بالذكر أن تيار العلم لم يزل جارياً من الشرق إلى الغرب و يتقلب من جهة إلى جهة فمرة فاقت الهند فى العلوم الرياضية و طوراً احرز اليونان قصب السبق و دام موطناً للشعراء و الأدب و وطناً للفلاسفة و الحكماء بلاد قد يظن الرجل أنها لم تنجب غير الشعراء و الفلاسفة .

ارض كانت مادة لا تنقطع لكل ما ابدعه الذوق الانسانى و اوجدته القرائح البشرية و لم يزل اوربا يستفيد بعلمه حتى اليوم كان هذا و ذاك ولكن ثم اموراً لا تحيط بها العقول البشرية و لا يتناولها العلم الانسانى و لا ينفع فيها الذكاء وحدة الذهن و هى ما هو سبيل النجاة ؟ و ما هو سر هذه الدنيا ؟ و ما هو السبيل لانقاذ عجلة الحياة الانسانية التى غاصت فى الوحل — هذه هى اسئلة يعجز الانسان عن حلها الصحيح و لا يستطيع رجل ان يحل هذه الالغاز المعقدة غير الانبياء و تعاليمهم فان فى ايديهم المباركة طرف كل حبل و مفتاح كل قفل . هذه هى الميزة التى تختص بالانبياء .

ثم اثبت الاستاذ ببراهين مختلفة و امثلة عديدة ان الانسان لم يزل بدون شك فى رقى و علو و ظفر و انتصارات فى ميادين الطبيعة و العلم و لكنه لم يزل فى انحطاط و سقوط فى الروح و الاخلاق

فكثيراً ما نرى و نشاهد ان الزعماء والقادة يلقون خطاباً حماسية و ينهون عن العسف والحياة والارتشاق والمقامرة ولكنهم كلما وصلوا الى كراسى الحكم وحصلت لهم وسائل الحياة و تولوا توزيعها جملوا يستأثرونها و يقسمونها قسمة ضيزى و يرتكبون لزيادة ثروتهم و تضخيم ما لهم كل ما تأباه الفضيلة والمروءة و يمنعهم القانون ،

والمسئلة التى تهم الناس اليوم هى انه لماذا كثر التهاون فى اداء الواجبات و عمت المعاصى والفجور فكل يطلب ماله و لا يودى ما عليه و كل يدالع فى طلب حقه و يتغافل عن اداء واجبه و من العجيب ان الذين ينهون عن المعاصى والجرائم هم ايضاً يرتكبون الافعال الشنيعة والتافهة ،

ولو درسنا تاريخ العالم الخلقى و دققنا النظر فى اسباب الفوضى والانحلال الخلقى و فكرنا فى رؤوس المسائل والمشاكل التى تواجه الحياة القومية والاجتماعية اليوم لظهر لنا انها لا ترجع الى قلة العلوم والمعرفة والاطلاع على مضار الاشياء بل لوجدنا ان الانسان ليملك اليوم مادة واسعة من العلوم و تفاصيلها التى قلما يحتاج اليها ولكنه لا يملك نور الهداية والضياء النبوى الذى ينير طريقه و أنه يحمل الاصول والمبادئ للحياة الانسانية و يعرض عن العمل بها .

ولا اشك أن علم الكيمياء ليملك ثروة عظيمة من وسائل العمل ولكنه لا يستطيع ان يمنحنا قوة العمل الصالح و لا يقدر ان يحمل على نية صادقة فانك اذا أردت أن تحج البيت فتستطيع أن تستفيد من مخترعات العلوم والكيمياء و تقطع مسافات بعيدة فى لمح البصر

و لكن العلم لا يستطيع أن ينفخ فيك روح الحج و يمنحك إرادة
الحج المبرور ،

و ليست الخسائر والنكبات التي تواجه الانسان اليوم من أنه
لم يستعمل العلوم ولم يستفد بها بل لأن علم الكيمياء ركب على
الانسان و ملك عقله و تفكيره ،

أيها الشباب الاسلامي اتم جزء من اجزاء الاسرة الهندية
المنتشرة في الارض و اتم إحدى الامم التي تسكن في ربوع الهند
تلك البلاد التي امتازت بموقعها الجغرافي و موقفها السياسي و بعض
حوادثها التاريخية امتيازاً عظيماً و أصبحت ذات اهمية كبيرة حتى
انها تستشرف لزعامه آسيا بل تستشرف لتقود العالم كله و لكنها مع
الأسف الشديد لا تملك أية رسالة ابدية قضى الله بظورها و
خلودها ،

واستطرد الاستاذ قائلاً مهما تقدمتم أيها الشباب الاسلامي
في العلوم العصرية و مهما حصل لكم من الشهادات و حصل لكم
من المناصب الرسمية العالية فانكم لن تبلغوا الزعامة العالمية فان الزعامة
ليست بالامر الهين واعلموا أن بلادكم ليست في حاجة إلى هذه المنافع
المادية و إنها لا تريد منكم ان تكونوا أداة حقيرة في هذا الجهاز المادى
و أن تكونوا ذلك الساقط الهمة الذي ذمه الشاعر بقوله :

لما الله صعلوكا مناه و همه من العيش أن يلقى لبوساً و مطعماً

ليست الهند اليوم بأشد افتقاراً منها إلى حكومة تمثل تمثيلاً